علي أحمد باكثير: حياته من أدبه
رواية (سلامة القس) نمـوذجاً

د. عبد الحكيم الزبيدي

لاشك أن أدب أي أديب لا ينبع من فراغ وإنما يأتي نتيجة ما تكتنزه ذاكرته من أحداث وما مرت به من تجارب يضاف إلى ذلك ثقافته وخياله الخصب. والمتتبع لأعمال الأديب علي أحمد باكثير المسرحية والروائية يلمس انعكاس بعض الأحداث التي مرت به في حياته واضحاً في أدبه. على أن درجة الوضوح قد تختلف من عمل لآخر. فإذا كان الرمز صريحاً في أول عمل مسرحي لباكثير وهو مسرحية (هُمام أو في بلاد الأحقاف) فإنه في أعمال أخرى أقل وضوحاً وقد يكون مستتراً وغير جلي، كما هو الحال في رواية (سلامة القس) التي احتوت على إشارات خفية إلى بعض ما تعرض له باكثير من تجارب في حياته. وسنحاول في السطور التالية تلمس هذه الإشارات، مسترشدين في ذلك بشعره، حيث لم يسجل باكثير من سيرته الذاتية إلا لمحات يسيرة في كتابه (فن المسرحية من خلال تجاربي الشخصية).

سلامة القس

هي أول رواية يكتبها باكثير وقد كتبها سنة 1944م. وفي هذه الرواية نجد صدى لحب باكثير لزوجته التي اختطفها الموت في شبابها في تصويره لقصة الحب العفيف بين سلامة وعبد الرحمن القس. وكما فرق الموت بين باكثير وزوجته الحبيبة نجد القضاء يفرق أيضاً بين عبد الرحمن وحبيبته سلامة التي بيعت للخليفة في دمشق وانقطع كل أمل له في لقائها في الدنيا. إلا أننا نلمح مشابهة بين شخصية عبد الرحمن القس وبين باكثير في عدة أمور، منها أمل كل منهما في لقاء محبوبته في الآخرة بعد أن عز اللقاء في الدنيا:
«فقال عبد الرحمن والدمع يترقرق في عينيه: «أجل انقطع كل أمل في صيرورتك إليّ في هذه الحياة الدنيا، أما في الحياة الأخرى فإن الأمل باقٍ يا سلامة، وإنه لأمل كبير» (ص 166).

وكان مصدر يقين عبد الرحمن من لقائه بسلامة في الآخرة هو قول الله تعالى: (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين)، ولهذا حث عبد الرحمن سلامة على المحافظة على الصلاة والصيام واجتناب ما حرم الله، حتى تصير له في الآخرة. ويتطابق هذا اليقين لدى القس مع ثقة باكثير وأمله في لقاء زوجته في الجنة، وقد ورد ذلك في كثير من شعره الذي نظمه في رثاء زوجته الحبيبة. وأوله – فيما نظن- قوله على لسان هُمام، في مسرحية (هُمام أو في بلاد الأحقاف) التي كتبها باكثير في الطائف قبل قدومه إلى مصر(1):

لئن حالت الأيام بيني وبينه

وقدر للشمل الجميع شتاته
ففي جنة المأوى غداً سوف نلتقي
بفضل كريم لا تحد هباته
وإن عزاء القلب إيمانه به
وقد فارقته في الحياة حياته

وقوله في مطولته (نظام البردة)، وقد نظمها أيضاً في الطائف(2):
والحب يقصر من خطوي وهل عرفت=(معبودة الحب) مثلي عابداً صنمي
أوفى وأقوم في هجر وفي صلة=مني بحفظ عهود الحب والذمم؟
بليت فيه بخطب لا عزاء له=إلا اللقاء بدار الخلد والسلم
ومن ذلك أيضاً قوله في قصيدة (الأمس واليوم)(3)، التي نشرها أول مقدمه إلى مصر:

فلأمت بعدك كي ألقاك أو فلأحيا بالذكرى لحين
وعزائي في يقيني أنني ألقاك في دار اليقين
ومن المواطن التي تتشابه فيها أحداث القصة مع سيرة حياة باكثير، وصف حالة عبد الرحمن حين صُدم بخبر بيع سلامة لرجل من المدينة بعد الحجر على أموال سيدها ابن سهيل لكثرة الديون عليه، حيث يصفه باكثير وصفاً يشبه حالته هو بعد وفاة زوجته. يقول باكثير واصفاً حال عبد الرحمن القس:
«خرج عبد الرحمن من عند ابن سهيل فقصد توّاً إلى المسجد فصلى المغرب، ثم طاف بالكعبة ما شاء الله أن يطوف، وهو في ذلك شارد اللب ذاهل الحس تجيء به الخواطر وتذهب، كأنما قد ألقي منها في بحر لجي يتلاطم عبابه، وتصطخب أمواجه، فهو منها في كبد، ترفعه موجة وتهبط به أخرى، ويرى الناس يقومون ويقعدون ويطوفون ويصلون وكأنه يرى أخيلة تتراقص أمامه، وأشباحاً تضطرب حوله، ويتصفح وجوههم فينكرها ولا يكاد يعرف فيها وجهاً. ويعود إلى نفسه فيتلمس جسمه كأنه يشك في موقفه ذاك ويريد أن يتبين أحيّ هو يضطرب بين الأحياء، أم ميت قد بعث مع الأموات في يوم الحساب!»(4).
وهذا التشبيه للخواطر بالأمواج المضطربة وإنكاره لوجوه الطائفين، ومسه لجسمه ليتأكد أنه لا يزال حياً، كل هذا يذكرنا بمطلع مطولته (نظام البردة)(5):
دجىً تتالى كأمواج المحيط بها = عقلي وقلبي وطرفي كل ذاك عمي
أكاد أرتاب في نفسي فأنكرها = لولا مسيسي جسمي غير متهمِ

بين باكثير والقس
ويبدو لي من خلال قراءتي لرواية (سلامة القس) أن باكثير يرمز فيها إلى تجربته الخاصة، وأن الصراع الذي شهده عبد الرحمن القس في نفسه بين التقوى والهوى هو الصراع الذي عاناه باكثير أول وصوله إلى مصر. فقد نشأ باكثير نشأة شبيهة بنشأة القس، في بيئة علم وصلاح وتقوى، فحفظ القرآن وتعلم الفقه والحديث، وكان داعية إصلاح في بلده (حضرموت)، يدعو إلى فهم صحيح للدين ونبذ البدع والخرافات. تماماً كما كان القس داعية إصلاح يسعى لدى الوالي ليخرج من البلد الأمين الفجرة من الشعراء أمثال عمر بن أبي ربيعة والمفسدين من المغنين أمثال جميلة. وكان باكثير –كما كان القس- بعيداً عن مواطن الفتنة لانعدام أسبابها في حضرموت، وبالتالي لم يتعرض لاختبار في إيمانه وتقواه. ولكنه بعد وصوله إلى مصر ومغامسته للحياة فيها، وجد نفسه فجأة في بلد منفتح على كل أنواع الفتن والشهوات التي يمكن له بكل سهولة أن ينغمس فيها وينحدر إليها. تماماً كما وجد القس نفسه فجأة أمام فتنة سلامة الطاغية ومراودتها له وهي تنظر إليه «نظرة تائهة فيها كل معاني الاستسلام والغزل»(6). وكما انتفض عبد الرحمن وذكّر سلامة بالله، انتفض باكثير وهو يرى نفسه يكاد يقع في بعض هذه الفتن التي تحيط به، ويستعصم بإيمانه وتقواه.
والأبيات التي نظمها باكثير(7) على لسان عبد الرحمن القس في الرواية يشكو فيها من الصراع الذي يجده في قلبه بين الحب والتقوى، إنما تعبر حقيقة عن مشاعر باكثير(8):
هواك يقارع التقوى بقلبي = فأشهد فيه حربهما سجالا
وهل في الأرض أشقى من محبٍ = يذوب هوى ولا يرجو نوالا

فلقد كان باكثير -في شعره الذي كان ينشره أول قدومه إلى مصر- يشكو من الصراع بين تقواه وبين دواعي الهوى التي يراها في متناول يديه لولا تورعه عنها مخافة الله، فمن ذلك قصائده: (واقفة بالباب)(9)، و(وحي سمراء)(10)، و(في الأزبكية)(11)، وفي نهاية الأخيرة يقول:
أواه للفنان عف إزاره = كم ذا يذوب فؤاده المتبول
ظمآن والماء المثلج دونه = ملء الكؤوس وما إليه سبيل

تتبع التقوى خطى أقدامه = وكأنما هو وحده المسؤول
وتراقب الأخلاق لحظ جفونه = وحسابها عند الضمير طويل

وكان ينشر مثل هذه القصائد في (أبولو)، وبعضها تنحو إلى الوصف الحسي كما في قصيدة (وحي الشاطئ) التي يصف فيها شاطئ (ستانلي باي) بالإسكندرية(12).

ولعله أخطأ حين نشر واحدة منها في مجلة الرسالة المحافظة، وهي بعنوان «ما هو الكون»(13)، وفيها وصف حسي، حتى إن محرر الرسالة كتب في الهامش، وكأنه يعتذر عن نشرها: «أثبتنا هذه القصيدة على علاتها تسجيلاً للون من ألوان الأدب الحضرمي»، وفي آخرها يقول باكثير:
رب غاوٍ يلومني في نشيدي = وهو لا ينتهي عن الفحشاء
خاشع الطّرف مطرق الرأس يمشي = بين خلين سمعة ورياء
يظهر الفكر وهو في السر يغشى = ما تندى له جبين الحياء
وأنا الطاهر السراويل والبُر = نقيّ القميص عفّ الرداء

ليس مني الفسوق تأباه في جسـ = ـمي دماء الجدود والآباء
ينهل الحسن من غرامي ولكن = هو صديان يلتظي من إبائي
كل حبي طهر وقدس وتسبيـ=ـح لربي وصيغة من دعائي
وهذه العفة هي سر شقاء باكثير كما هي سر شقاء القس في رواية (سلامة):
«وسكت عبد الرحمن قليلاً ثم تنهد وقال: «ولكن الناس يقولون فسق القس وشغفته جارية ابن سهيل حباً». فقالت سلاّمة: «دعهم يقولوا ما يشاؤون، فوالله يا بن أبي عمار إنك لطاهر الذيل، شديد المخافة من الله». فقال عبد الرحمن بصوت حزين: «أجل يا سلاّمة، وهذا سر شقائي»(14).

وكأني بباكثير حين جعل القس في رواية (سلامة) يقارن بين حياته قبل أن يعرف سلامة وبعد معرفته بها، كأني به يقارن بين حياته هو قبل قدومه إلى مصر وبعدها، يقول باكثير:
«ورجع عبد الرحمن إلى ماضيه، يحن إلى تلك الأيام الصافية إذ كان فيها خالي البال راضي النفس مستريح الفكر، ينام مطمئناً ويقوم من نومه مطمئناً، ويقضي نهاره في المسجد يذكر الله أو يتلو القرآن أو يشهد مجالس العلم، معرضاً عن الدنيا، صادفاً عن باطلها وغرورها، سالياً همومها، مبتعداً عن مدارج الفتن ومسالك الغواية...»(15).

أليست هذه حياة باكثير في حضرموت؟ إن باكثير هنا يكاد يتحدث عن نفسه. ويستمر عبد الرحمن في مساءلة نفسه، مقارناً بين ماضيه وحاضره:
«أحق أن ماضيه خير من حاضره؟ أليس من الجائز أن يكون حاضره خيراً من ماضيه؟ ليوازن بينهما في شيء(16) ليرى أيهما الراجح».
ويستمر القس في المقارنة:
«كان في ماضيه يخشى الله ويتقيه، ويبكي في صلاته وقيامه، فهل ذهبت عنه خشية الله وتقواه؟ أليست خشية الله اليوم وقد حفت به الشهوات وتبرجت له الدنيا أعظم من خشيته أمس حين لم يكن في متقلب عيشه ما يخشى الله فيه؟ وهل رقأ دمعه إذا أجنه الليل وقام في سكونه يناجي الله؟ أليس بكاؤه اليوم أغزر من بكائه أمس؟ ألم يصر قلبه أرق وحنينه أصدق وشعوره أعمق؟»(17).

«استمر عبد الرحمن على هذا النحو يوازن بين حاضره وماضيه فيجد الرجحان لحاضره، أو يميل قلبه إلى ترجيحه فيصدقه عقله»(18).
إن باكثير هنا –في رأيي- يعكس حالته النفسية وقلقه من الفتن المحيطة به، ومقارنة ذلك بماضيه قبل أن تطأ قدماه أرض مصر. ولكنه ينتصر للحاضر مغلباً إياه على الماضي، طالما هو متمسك بتقواه وورعه، رغم وجوده بين هذه المغريات والشهوات.

وهكذا كان اختيار باكثير لهذه القصة من بطون كتب التاريخ لأنها تصور التسامي الخلقي والترفع على الشهوات وصدها بالتقوى والعفاف، فموقف عبد الرحمن القس من سلامة وتعففه حين راودته عن نفسه، يشابه تعفف باكثير وتقواه حين راودته الشهوات عن نفسها في مصر البلد المنفتح الذي يعج بالمغريات لشاب قادم من أعماق الريف والبادية.

بقي أن نشير إلى أن باكثير – فيما أرى - كان يخشى على نفسه إن انغمس في تلك الشهوات أن يفقد بذلك السبب في لقاء زوجته الحبيبة في الجنة. فباكثير كان على ثقة في أنه سيلتقي بزوجته التي سبقته إلى عالم الخلود، كما أسلفنا، إلا أن هذا الأمل رهن بالتزام باكثير بشرط التقوى، وهذا هو فحوى الآية الكريمة التي ظل القس يرددها على سمع سلامة في آخر لقاء لهما، وكان آخر حديث بينهما أن ردد هو الجزء الأول من الآية ورددت هي الجزء الثاني حتى غابت عن ناظريه:
«قال لها: «لا تنسي يا سلامة آية الذكرى». فقالت: «لن أنساها يا عبد الرحمن». قال: «الأخلاء يومئذ ...». فقالت: «بعضهم لبعض عدو إلا

المتقين». واستوت على هودجها فنهض الجمل البارك وتحرك الركب فتعالى صياح الجميع، وطفقت سلامة تشير بيديها تحييهم، ووقعت عيناها على عبد الرحمن بن أبي عمار ينظر إليها ويفتر ثغره عن ابتسامة تلمع بين الدموع وهو يردد: «إلا المتقين .. إلا المتقين..». وكانت تلك آخر نظرة لسلامة في عبد الرحمن ولعبد الرحمن في سلامة. وكانت هذه آخر كلمة سمعتها سلامة من عبد الرحمن»(19).
فنصيحة عبد الرحمن لسلامة أن تحافظ على الصلوات وتبتعد عن المحرمات حتى تلتقي به في الآخرة، هي في الحقيقة نصيحة باكثير لنفسه أن يعصم نفسه بالتقوى حتى يلتقي بزوجته الحبيبة في الجنة. وعهد سلامة لعبد الرحمن لم يكن في الحقيقة إلا عهد باكثير لزوجته التي سبقته إلى عالم الخلود:
«والله لامتنعن عن الشراب وأحافظن على الصلاة والصوم، وأعصمن نفسي بالتقوى، ولأصّدقن بكل ما تصل إليه يدي، والله يغفر لي ما دون ذلك»(20).

وهكذا نرى أن باكثير قد أسقط تجربته الشخصية على أحداث القصة، ولكنه فعل ذلك بحرفية عالية، بأن اختار أحداثاً من التاريخ، وأضاف عليها من خياله ما زادها جمالاً وتشويقاً، ثم راح يسقط عليها مشاعره وأحاسيسه وصراعات نفسه، ليخرج منها منتصراً، كما خرج عبد الرحمن القس من تجربته منتصراً.

الهـــوامش:

1) علي أحمد باكثير: همام أو في عاصمة الأحقاف، المطبعة السلفية، القاهرة، 1353هـ، ص 104.
2) علي أحمد باكثير: نظام البردة، مطبعة مصر، د.ت، ص ص 8-9.
3) مجلة (أبولو) سنة 1934م.
4) سلامة القس، ص 116.
5) نظام البردة، ص 5.
6) سلامة القس، ص 92.
7) تتبع الدكتور أبوبكر البابكري الأبيات الواردة في (سلامة القس) وفرق بين الأبيات المثبتة في كتب التاريخ وبين تلك التي من نظم باكثير، انظر: روايات باكثير التاريخية، منشورات جامعة صنعاء، 2005، ص ص 288-294.
8) أبولو، ع 9 مج 2، مايو 1934، ص ص 862-863.
9) السابق، ص 991.
10) أبولو، ع 10، مج 2، يونية 1934، ص ص 1022-1023.
11) أبولو، ع 1، مج 3، سبتمبر 1934، ص 79
12) الرسالة، ع 45، السنة 2، 1 صفر 1353هـ/14 مايو 1934م، ص 826.
13) سلامة القس، ص 98.
14) سلامة القس، ص 102.
15) كذا في الأصل ولعلها: «ليوازن بينهما في شيء من الإنصاف»
16) سلامة القس، ص 105.
17) سلامة القس، ص 106.
18) سلامة القس، ص 107.
19) سلامة القس، ص 171-172.
20) سلامة القس، ص167.

جميع الحقوق محفوظة – حكومة الشارقة 2010